الباب الأول

في فضل علم الأنساب، وفائدته، وميسس الحاجة إليه

لا خفاء أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة؛ لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية، والمعامل الدينية، فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها في مواضع:

منها: العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر منها إلى المدينة المنورة، فإنه لا بُدَّ لصحة الإيمان من معرفة ذلك ولا يعذر مسلم في الجهل به، وناهيك بذلك.

ومنها: التعارف بين الناس حتى لا يعتزي أحد إلى غير آبائه، ولا ينتسب إلى سوى أجداده، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}.

وعلى هذا يترتب أحكام الورثة؛ فيحجب بعضهم بعضًا، وأحكام الأولياء في النكاح؛ فيقدم بعضهم على بعض، وأحكام الوقف إذا خَصَّ الواقف بعض

الأقارب، أو بعض الطبقات دون بعض، وأحكام العاقلة في الدية حتى يضرب الدية على بعض العصبات دون بعض، وما يجري مجرى ذلك؛ فلولا معرفة الأنساب لفات إدرات هذه الأمور وتعذر الوصول إليها.

ومنها: اعتبار النسب في كفاءة الزوج والزوجة في النكاح؛ ففي مذهب الإمام الشافعي لا يكافئ الهاشمية والمطلبية غيرهما من قريش، ولا يكافئ القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشي، وفي الكنانية وجهان، أصحهما أن لا يكافئها غيرها ممن ليس بكناني ولا قرشي، وفي اعتبار النسب في العجمي -أيضًا- وجهان: أصحهما الاعتبار.

وفي مذهب الإمام أبي حنيفة قريش بعضهم أكفاء بعض، وبقية العرب بعضهم أكفاء بعض، واستثنى في الملتقى -تبعًا للهداية- بني باهِلةَ لخسَّتهم.

قال صحاب الدرِّ: والحق الإطلاق، وأما في العجم فلا يعتبر النسب عندهم؛ فإذا لم يعرف النسب تعذرت معرفة هذه الأحكام.

ومنها: مراعاة النسب الشريف في المرأة المنكوحة، فقد ثبت في الصحيح أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «تُنكح المرأة لأربع: لدينها، وحسبها، ومالها، وجمالها»؛ فراعى صلى الله عليه وسلم في المرأة المنكوحة الحسب وهو الشرف في الآباء.

ومنها: التفريق بين جريان الزق على العجم دون العرب على مذهب من يرى ذلك من العلماء وهو أحد القولين للشافعي -رحمه الله تعالى- فإذا لم يعرف النسب تعذر عليه ذلك إلى غير ذلك من الأحكام الجارية هذا المجرى، وقد ذهب كثير من الأئمة المحدثين والفقهاء، كالبخاري، وابن إسحاق، والطبري إلى جواز الرفع في الأنساب؛ احتجاجًا بعمل السلف فقد كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه في علم النسب بالمقام الأرفع، والجانب الأعلى، وذلك أدل دليل وأعظم شاهد على شرب هذا العلم وجلالة قدره.

وقد حكى صاحب الريحان والريعان عن أبي سليمان الخطابي -رحمه الله تعالى- أنه قال كان أبو بكر رضي الله عنه نسابةً، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة:

فقال: ممن القوم؟

قالوا: ربيعة.

قال -رضي الله عنه-: وأي ربيعة أنتم أمن هامتها أم من لهازمها؟

قالوا: بل من هامتها العظمى.

قال أبو بكر رضي الله عنه: ومن أيها؟

قالوا: من ذهل الأكبر

قال أبو بكر رضي الله عنه: فمنكم عوف الذي يقال لاحر بوادي عوف؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء؟

قالوا: لا.

قال: فنمكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنعمها؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة المفردة؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم أخوال الملوك من كِندة؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم أصهار الملوك ومن لخم؟

قالوا: لا.

قال: فلستم بذهل الأكبر، بل ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام من شيبان يقال له: دغفل حين بقل وجهه فقال: إن على سائلنا أن نسأله -والفتى لا يعرفه- أو تحمله يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئًا من خبرنا فمن الرجل؟

قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا من قريش.

قال: بخٍ بخٍ! أهل الشرف والرِّياسة، فمن أي القرشيين أنت؟

قال: من ولد تيم بن مُرة.

قال الفتى: أمكنت -والله- من سواء الثغرة، فمنكم قصي الذي جمع القبائل كلها، وكان يدعى مجمعًا؟

قال: لا.

قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه؟

قال: لا.

قال: فمن أهل الندوة، أنت؟

قال: لا.

قال: فمن أهل السقاية، أنت؟

قال: لا.

قال: فمن أهل الحجابة، أنت؟

قال: لا واجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته.

فقال الفتى:

صَـــارَفَ دُرءُ الـــسَّيلِ دَرَاءً يدْفعـــه يهيـضه حينًـا وحينًـا يـصدعه

أما والله يا أخا قريشٍ، لو تثبت لأخبرتك أنك من رعيان قريش، ولست من الذوائب فأخبر سول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فتبسم.

فقال علي رضي الله عنه: يا أبا بكر، لقد وقعت من الغلام على باقعة.

قال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا فوقها طامة.

ودغفل هذا هو: دغفل بن حنظلة النَّسابة الذي يضرب به المثل في النسب، وقد كان له معرفة بالنجوم وغيرها من علوم العرب، قدم مرةً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في خلافته فاختبره فوجده رجلًا عالمًا، فقال: بِمَ نلت هذا يا دغفل، قال: بقلب عَقول، ولسان سئول، وآفة العلم النسيان، قال: اذهب إلى يزيد فعلمه النسب والنجوم.

وقد ذكر أبو عبيد أن ممن يقاربه في العلم بالأنساب من العرب ابن الكيس من بني عوف بن سعد بن تغلب بن وائل، وفيه وفي دغفل المقدم ذكره يقول مسكين بن عامر الشاعر:

فحكم دغفلا وارحل إليه ... ولا تدعى المطي من الكلال
أو ابن الكيس النمري زيدا ... ولو أمسى بمنخرق الشمال

وممن كان مقدَّمًا في النسب من العرب -أيضًا- النجار ابن أوس بن الحارث بن سعد هديم من قضاعة، فقد قال أبو عبيدة: إنه انتسب العرب وقد صنَّف في علم الأنساب جماعة من أجلة العلماء وأعيانهم كـ: أبي عبيد، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم، وغيرهم، وهو دليل شرَّفه ورفعة قدره.